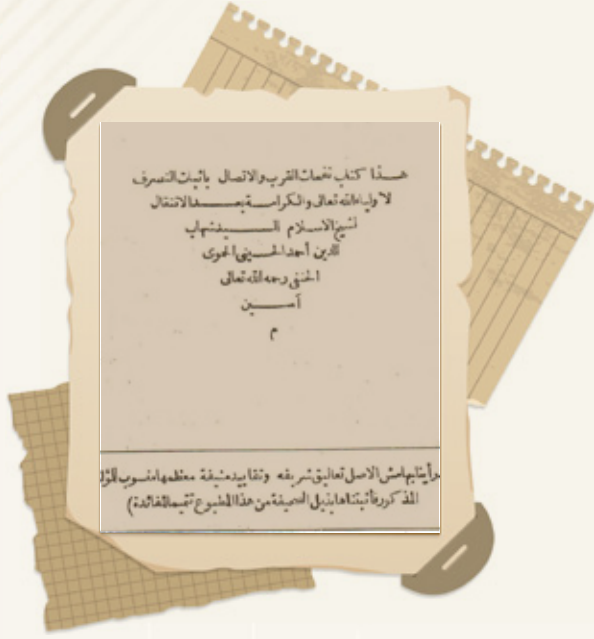


خزانة الوثائق

تحقيق مخطوطة نفحات القرب والاتصال بإثبات التصريف لأولياء الله تعالى والكرامات بعد الانتقال

د. دعاء أحمد



تندرج رسالة «نفحات القرب والاتصال بإثبات التصريف لأولياء الله تعالى والكرامات بعد الانتقال» ضمن النصوص الصوفية المتأخرة التي تكشف بوضوح عن أحد المسارات المركزية في الجدل الصوفي، وهو الانتقال من مجرد إثبات كرامات الأولياء في حياتهم إلى تقرير استمرار آثارهم بعد الموت، بل وإثبات نوع من التصرف والامتداد الروحي لهم بعد الانتقال من الدنيا. ومن هنا تكتسب هذه الرسالة قيمتها؛ إذ لا تقف عند تقرير أصل الولاية والكرامة، بل تتجه إلى بناء تصور متكامل عن حياة الأولياء بعد الموت، وما يترتب على ذلك من مشروعية الانتفاع بهم، والاستمداد منهم، وربط الزيارة بالتماس البركة والنفع.

وبين الميل إلى التقرير الصوفي والدفاع عن قضاياها. وتكشف هذه الرسالة عن جانب مهم من تكوينه الفكري؛ إذ تبدو فيها نزعة واضحة إلى الانتصار لمقولات التصوف العملي، مع محاولة إضفاء الشرعية العلمية عليها من خلال الاستناد إلى عبارات الأئمة، وأقوال أهل الكلام، وبعض الآثار والأخبار المشهورة في الباب.

ومؤلف هذه الرسالة هو أحمد بن محمد مكّي، أبو العباس، شهاب الدين الحسيني الحموي الحنفية، المتوفى سنة 1098هـ، وهو من علماء المذهب الحنفية الذين جمعوا بين الاشتغال بالفقه والأصول واللغة،

ومن حيث موضوعها، فإن الرسالة تتحرك في مساحة شديدة الحساسية؛ لأنها تعالج قضية ليست محل اتفاق بين المنتسبين إلى الإسلام، بل هي من المواطنين التي دار حولها جدل طويل، قديمًا وحديثًا، بين من يثبت للأولياء كراماتٍ في الحياة وبعد الوفاة، وبين من يقصر الأمر على ما ثبت من فضلهم في حياتهم دون التوسع في دعوى التصريف والتأثير بعد الموت. ولهذا فإن الرسالة لا تُقرأ بوصفها نصًا وعظيًّا أو روحيًّا مجردًا، وإنما بوصفها وثيقة مذهبية تسعى إلى ترسيخ رؤية مخصصة للولاية، وتقرير آثارها في البرزخ، وربطها بجملة من الممارسات الشائعة في البيئات الصوفية.

ويظهر مقصد الرسالة من عنوانها نفسه؛ فالمؤلف لم يقتصر على لفظ الكرامات، بل ضم إليه لفظ التصريف، وهو لفظ يحمل معنى أوسع من مجرد الكرامة العارضة، إذ يشير إلى نوع من التأثير المستمر، أو الحضور المتجاوز لحدود الحياة الدنيوية. وهذا الاختيار الاصطلاحي ليس عابرًا، بل يدل على أن الرسالة تتحرك في أفق صوفي متأخر نسبيًّا، حيث لم تعد القضية مجرد إثبات فضل الولي، بل صارت متصلة بموقعه في الكون، وبما إذا كان موته يقطع أثره أو لا يقطعه.

ويبدأ المؤلف رسالته بمقدمة تمهّد لهذا المعنى، فيقرر أن الله تعالى اختص أوليائه بصنوف من الإكرام، وأن هذه الخصيصة لا تنتهي بالموت، بل تبقى لهم بعد الانتقال. ثم يذكر أن باعثة إلى التأليف سؤال ورد عليه يطلب منه تحرير القول في هذه المسألة، مما يدل على أن الرسالة وُلدت في سياق جدلي، وأنها كُتبت جوابًا عن إشكال قائم، لا باعتبارها مجرد تأمل نظري معزول. وهذا يمنح النص طابعًا دفاعيًا ظاهرًا، ويجعل بنيته قائمة على الاستدلال والرد أكثر من قيامها على السرد أو التزكية.

ومن اللافت أن المؤلف لا يدخل إلى المسألة مباشرة، بل يبدأ أولاً بتقرير مفهوم الولي والكرامة، فينقل تعريفات أهل العلم في هذا الباب، ويحرص على تأكيد أن الكرامة أمر ثابت عند أهل السنة، وأن إنكارها ليس من مذهبهم. وهذا التمهيد له وظيفته الواضحة؛ إذ يريد المؤلف أن يجعل الخصومة في حدود ضيقة: فمن سلّم بأصل الكرامة، فليس بعيدًا - في نظره - أن يسلم بإمكان استمرارها بعد الموت. ومن هنا كانت الرسالة قائمة على توسيع دائرة المسلم به، لا على إنشاء أصل جديد من فراغ.

وبعد هذا التمهيد ينتقل إلى صلب دعواه، فيقرر أن الكرامة بعد الموت أمر ممكن عقلاً وواقع نقلاً . وهذه الثنائية - الإمكان والوقوع - هي عصب الرسالة. فهو من جهة يحتج بأن خوارق العادات كلها داخلية تحت القدرة الإلهية، فلا مانع من أن يظهر الله تعالى على يد ولي من أوليائه أمرًا خارقًا بعد وفاته، كما ظهر على يديه في حال حياته. ومن جهة أخرى يستدعي أخبارًا وآثارًا وقصصًا يرى أنها تشهد لوقوع ذلك بالفعل. وبهذا تتشكل الرسالة على طريقة كثير من المصنفات الكلامية الصوفية: تأسيس عقلي يتبعه استئناس نقلي، ثم تنزيل عملي على ما جرى به العمل في البيئات الصوفية.

وإذا نظرنا في البنية الحجاجية للنص وجدنا أن المؤلف حريص على أن يجعل الموت غير قاطع لأثر الولاية . بل إن بعض العبارات التي ينقلها أو يقررها توحى بأن الولي بعد مفارقة البدن قد يكون أقرب إلى الصفاء، وأبعد عن العوائق الحسية، ومن ثم يكون ظهور الكرامة بعد الموت - في هذا التصور - غير مستبعد، بل قد يكون أولى من ظهورها في بعض أحوال الحياة. وهذه الفكرة بالذات تمثل نقطة مركزية في التصوف المتأخر؛ لأنها تفتح الباب واسعًا لتعظيم الأضرحة، وبناء تصور خاص عن زيارة القبور، والحديث عن مدد الأولياء واستمرار عنايتهم بمريديهم وأتباعهم.

ومن هنا تتجاوز الرسالة حدود الجدل النظري إلى تأسيس ممارسات عملية . فهي لا تبحث في الكرامة باعتبارها قضية غيبية مجردة، بل تُفضي - من حيث منطوقها أو لوازمها - إلى تسويغ جملة من التصرفات المرتبطة بالأولياء بعد موتهم. فحين يقرر المؤلف بقاء التصريف، ويثبت الكرامة بعد الانتقال، ويؤكد أن حياة بعض الأصناف بعد الموت ليست منقطعة بالمعنى الذي يفهمه عامة الناس، فإن ذلك يفتح المجال تلقائيًا للحديث عن الاستمداد، والتبرك، وشد الرحال المعنوي إلى المشاهد، وربط القبور بوظائف تتجاوز مجرد التذكر والدعاء للأموات.

والرسالة في هذا المعنى تمثل وثيقة كاشفة عن العقل الصوفي الحجاجي في مرحلة متأخرة؛ فهي لا تكتفي بتمجيد الأولياء أو الثناء عليهم، بل تسعى إلى بناء غطاء علمي لممارسات ترسخت في الواقع الصوفي، فأصبحت بحاجة إلى نصوص تُؤصلها وتدافع عنها.

ولهذا فإن قيمة الرسالة لا تكمن فقط في عباراتها، بل في كونها شهادة على مرحلة من تطور الخطاب الصوفي، انتقل فيها الاهتمام من تربية المريدين وتهذيب النفس إلى تثبيت شرعية المنظومة الطقوسية المحيطة بالأولياء بعد وفاتهم.

ومن جهة أخرى، تكشف الرسالة عن محاولة واضحة للجمع بين الفقه والتصوف والكلام . فالمؤلف حنفي المذهب، لكنه لا يكتب هنا بمنطق الفقيه المجرد، بل بمنطق من يريد أن يستثمر ما في علم الكلام من حديث عن الإمكان والقدرة، وما في التراث الصوفي من تعظيم للأولياء، وما في بعض الأخبار والآثار من إشارات إلى أحوال البرزخ، ليصوغ من ذلك كله مذهباً مترابطاً. وهذه السمة تجعل الرسالة مهمة في تتبع مسارات التداخل بين العلوم الإسلامية في خدمة القول الصوفي.

وإذا قرئت الرسالة في سياقها التاريخي، فإنها تبدو جزءاً من بيئة علمية وصوفية شهدت توسعاً في ثقافة الزيارة والتوسل وتعظيم المشاهد ، بحيث لم يعد يكفي فيها مجرد السكوت عن هذه الممارسات، بل ظهرت الحاجة إلى نصوص تسندها وترد على معارضيها. ومن هنا يمكن القول إن هذه الرسالة لا تعبر عن موقف فردي فحسب، بل تمثل وجهاً من وجوه الكتابة الصوفية التي أرادت أن تُحوّل الممارسة الشائعة إلى موقف مؤصل ومسنود بالعبارات والنقول. وخلاصة الوثيقة أن «نفحات القرب والاتصال» ليست رسالة في الكرامات على وجه العموم، بل هي رسالة في إدامة حضور الولي بعد موته ، وفي بناء الشرعية الفكرية لفكرة التصريف والانتفاع والامتداد الروحي بعد الانتقال. ولذلك فهي تصلح أن تُقرأ بوصفها نصاً مفصلياً في فهم كيف تطورت بعض التصورات الصوفية من مجرد الإقرار بفضل الأولياء إلى رسم صورة تتجاوز الحياة الدنيا، وتجعل للأولياء بعد موتهم دوراً مستمراً في عالم الأحياء.

وبهذا الاعتبار، فإن الرسالة تمثل مادة وثائقية مهمة للباحث في تاريخ التصوف؛ لأنها لا تكشف عن رأي عقدي أو ذوقي فحسب، بل تكشف عن آلية التفكير الصوفي في تثبيت المشروعية ، وعن الكيفية التي جرى بها توسيع مفهوم الولاية حتى شمل ما بعد الموت، ثم ما ترتب على ذلك من تصورات وممارسات ظلت مؤثرة في البيئات الصوفية إلى اليوم.